٢ـ المَنْهَجُ التَّارِيخِىُّ عِنْدَ نُقَّادِ الغَرْب

عكست النهضةُ العلميَّةُ فى بلادِ الغربِ بما صاحبها من هِزَّاتٍ فكريَّةٍ ؛ عكست صداها على الأدب ؛ فأصبحَ تعبيراً عن المُجتمع فى حالتى النُّشُوء والارتقاء ؛ وتصويراً لحياتهِ التى تسودهُ على المستويين السياسىِّ والاجتماعىِّ. ومن يومئذٍ التفتَ النُّقَّاد ؛ فأخذُوا يدرُسُونَ الأدب فى ضوء هذا المفهوم ؛ والذى يُمكن تلخيصهُ فيما يلى :

أـ عوامل المُجتمع والبيئة .

بـ السِّياسة .

جـ النَّزعاتُ الموروثة فى الأجناس .

.....

تطوَّرت هذهِ النَّظرة إلى مفهُومِ الأدبِ بازدهارِ العُلُومِ التجريبيَّة المعمليَّة على يدى (سانت بيف) ـ [١٨٠٤ ـ ١٨٦٩ م] ؛ والذى أخذ يدعُو إلى : الاهتمام بشخصيَّاتِ الأُدباء ؛ وسبر أغوارهم النفسيَّة والاجتماعيَّة .

أخذ سانت بيف يُقسِّم الأُدباء إلى طبقاتٍ وأنواع ؛ وجعلَ مُنطلقهُ فى هذا التصنيفِ هو ما بينهم من ملامحٍ وصفاتٍ يتَّفقُونَ فيها ... ؛ ومن هذا الاعتبار ـ أى كون منهج سانت بيف ؛ هو فى صميمهِ منهجٌ علمىٌّ بحتٌ ؛ يُشبه منهج عُلماء النَّبات فى ترتيبهم للنَّبات إلى أنواعٍ وفصائلٍ ـ يُمكن تسمية منهج هذا الرَّجُل بِـ : « التَّارِيخُ الطَّبِيعِىُّ للأَدَب » .

اتخذَ سانت بيف من سيرة الأديب وقصَّةِ حياتهِ سبيلاً ومدخلاً لفهمِ نتاجهِ وآثارهِ ؛ ثُمَّ نقدها والحُكم عليها ؛ إلاَّ أنَّ الأثرَ الأدبيَّ لم يحظَ عندهُ بالاهتمام والعناية ؛ واتَّجهَ جهدُهُ إلى دراسة الشَّخصيَّة والعصر ؛ وما أحاطَ بهما من أحداثٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ ؛ ولم يجعل ذلكَ ذَرِيعَةً لفهم العملِ الأدبيِّ ونقده والحُكم عليه ؛ بل اكتفى واقتصرَ على هذا الذى ذكرنا !! .

قَصَّرَ سانت بيف فى هذا الجانب ؛ ولكنَّهُ من جهةٍ أُخرى قامَ بأمرٍ أثار الإعجابَ والإكبار ؛ فقد جاهدَ من أجلِ التعرُّفِ على ما يكتنف حياة الأديب من ظُرُوفٍ شديدة الخُصُوصيَّة ؛ فأتى فى هذا الصَّدد بما يُشْبِه الأعاجيب ؛ بل بما يُشبه المُعجزات عِنْدَ أهلِ عصره !! .

ثُمَّ جاء (تين) ـ [١٨٢٨ ـ ١٨٩٨ م] ـ ؛ فحاول استثمار هذه الطَّريقة استثماراً يَقُومُ على ﴿ الجبريَّة الحتميَّة ﴾ ؛ على النَّحوِ الذى تتصف بهِ القوانين الطبيعيَّة ؛ فذهبَ إلى أنَّ الأديب ـ أىَّ كاتبٍ أو أديب ـ يخضعُ لا محالة لهذا القانُون الطبيعىِّ ؛ والذى يتمثَّل فى : ﴿ الجنس ... البيئة ... العصر ﴾ .

ـ اسْتِنْكَارٌ !!... ؛ وَمُنَاقَشَة :

كانت نظرة تين نظرةً جديدةً بلا ريب ؛ ولكن : جَعْل هذا ﴿ الثَّالُوث المُقدَّس ﴾ هو الذى يُحتكم إليهِ دائماً وأبداً ؛ يُعَدُّ أمراً جائراً ظالماً غير موضُوعىٍّ ولا منهجىٍّ ؛ بل هُو خاطىءٌ لاجدال ؛ وإلاَّ فلو سلَّمنا بصحَّتهِ المُطلقة ؛ لكان من نِتَاجِ هذا التَّسليم : أن نُهملَ شيئاً اسمهُ : ﴿ أَصَالَةُ الأَدِيب ﴾ !!... ؛ أن نُعْرِضَ إعْرَاضَاً قبيحاً عن أمرٍ يُوسَمُ بِـ : ﴿ العَبْقَرِيَّة الإبداعيَّة ﴾ !!.

كذلكَ نستطيع أن نقُول : النَّاقد الذى يُعَوِّلُ على هذهِ النَّظريَّة ؛ إذا ما أرادَ أن يدرسَ آثار أُدباء عصرٍ واحدٍ وبيئةٍ واحدةٍ وجنسٍ واحدٍ ؛ فإنَّهُ سيخضعُ فى عُبُوديَّةٍ مُضحكةٍ لهذا القانُون الذى لا يحتكمُ لسواهُ مهما كانت طبيعة الشَّخصيَّة أو النِّتاج أو الموقف !!... ؛ فكأنَّهُ بهذهِ المقاييس يجعلُ الجميع بلا مثنويَّةٍ فى دائرَةٍ هامشيَّةٍ وضيعة !!.

ثُمَّ جاء (برونتيير) ـ[١٨٤٩ ـ ١٩٠٦ م]ـ ؛ فكانت جُهُودُهُ التى عَوَّلَت على نظرية (دارون) فى النُّشُوء والارتقاء ؛ إذ جعل من النظريَّة سبيلهُ إلى فهم كيفيَّة نُشُوء الأَنواع الأدبيَّة وتطورها ؛ وذهبَ إلى أنَّ الشِّعر الغنائىَّ الرُّومانىَّ فى القرنِ التَّاسِع عشر تطور عن الوعظِ الدِّينىِّ الذى شاعَ بفرنسا فى القرنِ السَّابع عشر.

ومهما يكُن من أمرٍ ؛ فإنَّ تشدُّد برونتيير فى الخُضُوع لهذهِ النظريَّة جُملةً وتفصيلاً ؛ أفسدَ الكثيرَ من أحكامهِ ؛ وجعلَ رؤيتهُ فى منأىً عن الرُّؤى النَّقديَّة الموضُوعيَّة.